سورة الكهف والوحدة الموضوعية للسورة

في مقدمة سورة الكهف : جلاء بصر بصيرة العبد حتى يرى الأمور على حقيقتها، فلا تنطلي عليه الدنيا بزينتها، ولا ينطوي في أدراج فتنتها، وليعلم أن الشرف ليس في الترف، وإنما في الاستمساك بعروة الإيمان، والاعتصام بهداية القرآن، وإن كان في شَعَفَةِ جبل من الشُّعُوف، أو جوف كهف من الكهوف.

بيان الوحدة الموضوعية للسورة في معالجة هذا التصور: مطلع السورة (من الآية ١ : ٨) – وهو المتضمن لجميع مقاصد السورة إجمالاً : استفتحت بحمد الله لإنزاله قيِّمَ كُتُبه على قيِّمَ عباده ﷺ، مبشراً للمؤمنين، ومنذراً للمكذبين المفترين، وبيان أن الله زين الأرض لعباده، لا ليجعلوها غاية مرادهم، ومنتهى أمالهم، بل ليكون مشهد إحسان الخلق وإتقانه ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾- حاديًا لهم على بذل وسعهم في تحسين نياتهم وأعمالهم، ثم ختم المطلع ببيان أن هذه الزينة صائرة إلى زوال، للدلالة على أنها غير مقصودة لذاتها، ولا ينبغي لعاقل أن يفتتن بها، بل جعلها الله على ذلك النحو من الجمال لتصير بمثابة المثال في إحسان وإتقان الأعمال، وليحصل كذلك امتحان الخلق ويتجلى الفرق بين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة، ومن هنا تتجلى الحكمة من خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، تعليماً للمكلفين بأن الغاية ليست تكثير العمل المفضية إلى التعجل والخلل، ولكن المعوَّل على الإتيان بالعمل على الوجه الأحسن والنسق الأتمِّ، كما قرره سبحانه بقوله ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وبيَّن سبحانه أن الجزاء في الآخرة مترتب على أحسن الأعمال لا أكثرها ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

مضامين سورة الكهف (من الآية ٩ : ٩٩) – وهو المحور التفصيلي للمطلع الإجمالي : ويُستَفتَح هذا المقطع بخبر فتية الكهف الذين تنورت بصائرهم، فتزينوا بزينة الإيمان، ولم يُفتَنوا بالشهوات الدونيَّة، ولم يقفوا عند حد ظاهر الزخارف الدنيوية، ليكون هذا الخبر مثبّتا لأفئدة المؤمنين، وواعظًا للمفتونين الغافلين.

ثم يعطف بالأمر باتباع القرآن، وبأنه الفرقان الذي يفرق الناس إلى أهل سعادةٍ أو أهل شقاوةٍ و إبلاس.

ثم يضرب مثلا رجلين ممثِّلاً لحال الفريقين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ و﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، لينجلي بصر البصيرة بالتفكر والنظر في عواقب الأمور ومآلاتها.

ثم يعطف بضرب مثل للحياة الدنيا، وبيان أن زينتها من المال والبنين لن تغني عن العبد يوم القيامة شيئًا، إشارة لما تقدم من قول صاحب الجنتين لصاحبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم تعرض السورة مشهد قدوم العبيد يوم القيامة فرادى متجردين بلا مال ولا بنين، وهما اللَّذانِ كانا سبب طغيان صاحب الجنتين، وغاية غايات أكثر الثقلين.

ثم تعطف الآيات بذكر خبر إبليس -لعنه الله- وإبائه السجود لآدم عليه السلام. والحذر من اتخاذه وذريته أولياء من دون الله، وسر ذلك العطف هو أن إبليس هو إمام الغاويين، وداعية التزيين؛ كما أخبر الله عنه بقوله ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، وهو ما يترابط مع ما تقدم في السورة من قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنمتحنهم ونختبر صبرهم.

ثم تعرض سورة الكهف مشهد هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء وشركاء يوم القيامة، عطف بيان لقوله سبحانه ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

ثم ينتقل السياق لخبر موسى والخضر عليهما السلام، مستفتحًا بالإشارة إلى عَلِيِّ همة الكليم موسى -عليه السلام-، وبيان صبره وعزمه لأجل نيل شرف العلم الموصل إلى الله -سبحانه وتعالى-. ليكون هذا الخبر مثبِّتًا للنبي ﷺ ولأتباعه في مقام ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ....﴾.

وليكون كذلك موضحاً لحقيقة الدنيا وأن زهرتها وزينتها ليست معيارًا لرضوان الله، ولا دليلًا على حلول كرامته، فهذا موسى -عليه السلام- الرسول النبي المخلص وهو من أولي العزم من الرسل، ومعه فتاه يوشع بن نون -وهو نبي- لا يحملان من الدنيا سوى غدائهما، بل ويجعل الله فقد هذا الغداء علامة للاهتداء إلى الخضر، ثم يعرض الخبر مشهد آخر لموسى والخضر عليهما السلام -وهما أكرم من على ظهر الأرض يومئذ- وهما لا يجدان ما يسد جوعهما حتى يستطعما أهل القرية فيتأبون عليهما!!!

لتتجلى حقيقة أن الشرف ليس في الترف، ولكنه شرف ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وهو ما يظهر جليًا في خبر ذي القرنين حين عرض عليه القوم المال ليبني لهم السد، فقال ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي خير من المال، وقد مكنه الله -عز وجل- بأسباب العلم والإيمان.

المقطع الختامي (من الآية ٩٩ : ١١٠) : ثم تختم السورة بنحو ما استفتحت به، ليلتئم سواراها ويلتقي طرفاها ببيان مآل المفتونين الأخسرين أعمالا الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وهو ما أنذرهم به في مطلع السورة من قوله ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، ويبين كذلك في هذا المقطع تفسيرًا لما جاء في المطلع من بشارة المؤمنين بـ ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أن هذا الأجر هو ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وهؤلاء هم الذين عصمهم الله من قواصم الفتن.

ثم تنتهي سورة الكهف بما بدأت به من إثبات الوحدانية وتقريرها من خلال هذا الوحي المنزل على النبي ﷺ، ولما كان الاشتياق يهون المشاق، حَدَاهُم إليه سبحانه بقوله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ﴾ ليكون ذلك باعثًا لهم على إحسان أعمالهم، فينالوا المنازل العلى مقربين في جنات ربهم، ثم بيّن وصف أحسن العمل بقوله ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي على وفق هدي نبيه ﷺ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، أي خالصًا لوجهه الكريم سبحانه وتعالى.

نديم فرج خطاب